

الرمزية في شعر أدونيس

أ. باقي أحمد

إن الشاعر العربي الحديث وظف الرمز في أعماله الأدبية وخاصة الشعرية منها، وحول هذا الرمز إلى نبض داخلي وبهذا اكتسب فعاليته بوصفه منجما خصباً للطاقت الإيحائية التي تسعى دائماً إلى التجدد والانطلاق نحو آفاق جديدة تخدم النص الشعري الذي ينجيم عليه تجليات فنية وجمالية من خلال توظيف هذه الرمزية في الشعر العربي الحديث "ومن هنا ندري أن ما يرغب الشاعر في معرفته استنكاه الذات المبدعة بعد توظيف الرمز الأسطوري هو محاولة استكشاف فضاء الأعماق الذي يخزن الطاقة الباطنية لتجربة الذات في منابها الأولى، ولعل هذا ما يفسر عناية الشاعر بالرمز الأسطوري الذي يجد فيه تمريرة لذاته، كما يجسم علاقة التطابق بين عالمه الباطني، وعالمه الخارجي، تجسيدا معرفيا في سبيل إعطاء صورة عميقة للوجود الذي يبدو قائما على ثنائية الباطن والظاهر".¹

والرمز بهذا المفهوم هو رؤية شعرية يتكأ عليها الشاعر ليعبر عن واقعه ويطمح من خلالها إلى خلق واقع جديد وهكذا راح الشاعر الحديث عن هذا الرمز ليسقط عليه جزءا كبيرا من معاناته، وآلامه وأعماله.

وتوظيف الرمز في الشعر العربي الحديث منح النص الشعري من قيمة دلالية مضافة في الرمز حين لا يتقلنا بعيدا عن حدود القصيدة ونصها المباشر، لا يمكن الادعاء بأنه رمز الرمز هو ما يتيح لنا أن نتأمل شيئا آخر وراء النص فالرمز هو قبل كل شيء معنى خفي وإيحاء"²

والشاعر الحديث استعمل هذه الرمزية لأنها بالنسبة إليه مرجعية تراثية يجب طرحها في النص الشعري ومعالجتها، ولأنها ترتبط "ارتباطا وثيقا بالتراث بوصفه استدعاء وتحويلا وإعادة تأويل"³ وهكذا عمد الشاعر الحديث إلى تكثيف العملية الرمزية في شعره تكثيفا عميقا، وهذا التكثيف الرمزي قد اتسم لدى بعض الشعراء بالغموض والمعاني المحجوبة التي يكتسبها نوع من التصوف والهيام

نحو المجهول ، ويبدو أن الشعر المصوفين هم أبرز من مارس إعادة التشفير اللغوي في الشعر قديما عن طريق نزع الدلالات الأولى الحسية والدينية للكلمات تتصل بمجالات الجنس والخمر، وحالات النص لإدراجها في أنساق رمزية جديدة مرتبطة بمواجهتهم وعالمهم".⁴

إن هذه الرمزية التي اجتهد فيها الشاعر الحدائي إلى توظيفها وتخصيصها في الشعر العربي الحديث، وهذه الرمزية منحتة قدرا من العمق الفكري والموضوعي.

"إن الكلمات رموز المعاني بمعاني أشياء أي رموز لمفهوم الأشياء الحسية أو ثم التجريدية المتعلقة بمرتبة أعلى من مرتبة الحس"⁵ وهذه الرمزية في الحقيقة أعطت نكهة وواقعا خاصا للشعر العربي الحديث، وخاصة على مستوى المعنى.

ثم أن هذا الرمز كما يقول أحد الأدباء "هي لغة الوجدان الإنساني في إحساسه بالأشياء نحو غامض مستقر كما أن يصل إلى دائرة الفهم حتى يصبح قضايا عقلية لا أثر للألوان الهاربة وللخفايا المستترة ثم أن أداة لتشكيل الأولى في الشعر والأسطورة هي الخيال فهو هنا وهناك الذي يكشف وسائل التجسيد للشعور والفكر ويصوغ للتجربة النفسية في رموزها الخاصة"⁶ ومن بين الشعراء المعاصرين الذين وظفوا الرمز في شعرهم بطريقة ذكية، وأضفى هذا الرمز على تجربتهم الشعرية طابع البعد الإنساني والفكري المطلوب يقول أدونيس في إحدى قصائده

من ساحر يأتي بلا دخان

من حجر يصير ياسمين

يحيل صمت الأرض بالأغاني

وتولد المدينة

وكان نور النخيل وأثمر في صرخاتي.⁷

فأدونيس هنا في هذا المقطع وظف مفهوم الرمز بطريقة خاصة وخاصة حينما أكد في قوله "من ساحر يأتي بلا دخان".

فنحن نعرف أن الساحر يستخدم في سحره وسائل خاصة مثل النار والدخان والرماد إلى غيرها من هذه المكونات السحرية الذي لا يعرف طلامسها إلا الساحر ومع ذلك استقى هذا الشاعر عن كل هذه الوسائل المستخدمة في شعره.

فهو ساحر بلا دخان أنه (صمت الأرض).

(تولد المدينة) هي عبارة عن رموز استخدمها الشاعر ليعبر من خلالها عن مفاهيم واتجاهات يريد الوصول إليها إن الأرض في نظره قد بلغت درجة من الصمت والسكون ولكن هذا الصمت جاء في نفس الوقت مدعماً بالأغاني وأن المدينة تولد وولادتها رمزا واضحا للرخاء والازدهار والرفاهية.

"إن أدونيس يكتفي بالنبوة في أغانيه عبر مسارين: أولهما المخيلة المدهشة التي تحول العالم إلى شلال صور، وثانيهما للاستسلام لإشراق داخلي ينبغي تغيير العالم وتجاوز الموروث. والراهن السائد".⁸

وترى من خلال هذه المقاطع الشعرية السابقة نلاحظ أن أدونيس قد توسل بهذه الرموز الأسطورية والدينية والتراثية متجاوزا المؤلف ومدركا في نفس الوقت أن حداثة شعره لا تتحقق ما لا يفتح عن مستوى العطاء الإنساني، وإعادة قراءة الموروث التاريخي والديني والشعبي، وتوظيفه في شعرنا الحديث.

ومن هنا نجد أدونيس "يتكرر شخصية أسطورية خاصة به، وكان فيما سبق من آثاره الشعرية يلجأ إلى صيغ أسطورية معروفة يتزعمها من حركيتها التاريخية ويعيد إحياءها بالرموز والدلالات المعاصرة راجعا بذلك المعضلات الإنسانية الأزلية ومواجهات الإنسان المعاصر"⁹

وهكذا انفتح الشاعر العربي المعاصر على الرمز ليوظفه في نصه وقد نجح في هذا التوظيف وأنه من خلال هذا التوظيف حمل هذا التوظيف وأنه من خلال هذا التوظيف حمل النص الشعر وحولة دلالية وفكرية ومعرفية وأسطورية، وقد استخدم الشاعر التوظيف الرمز نظرا لاحتكاكه بالآداب الغربية، وتأثره بمذاهبهم المختلفة.

"فقد ظهرت الرمزية كمذهب أدبي في أوروبا أوائل القرن التاسع عشر كرد فعل على الرومانسية والبرناسية والواقعية.

فقد أهملت الرومانسية الالتصاق إلى عالم اللا شعور، ونبذت حركات التمرد والرفض، فتأقلم أدباؤها مع المجتمع الجديد وقيمه بعد أن وصلوا إلى أوج ازدهارهم المادي والمعنوي".¹⁰

فتجسيد الرمز لدى الشاعر الحدائي، هو مكون في منصهر في بنية القصيدة وهكذا سعى الشاعر المعاصر إلى إثراء نصه من خلال هذه الرموز الأسطورية "إذ وجد الشاعر المعاصر أبواب الحضارات القديمة المختلفة تفتح له، ليجتاز من أساطيرها المتنوعة ما تسوقفه على تجاربه الأدبية فردية كانت أم جماعية، كما لم يجد الشاعر ما يمنعه من استحضار رموز أسطورية إغريقية أو يونانية أو هندية أو غيرها من مختلف حضارات العالم، ومن بين الرموز الأسطورية التي جذبت اهتمام الشاعر العربي المعاصر تموز، أو أدونيس، ADNIS أو زيوس"¹¹

ولعل من أهم هذه الأنساق الرمزية التي طرحها الشعراء المحدثين في توظيفهم لها. هي الرموز المستمدة من الطبيعة الحية أو المبنية، أنظر إلى أدونيس في هذا المقطع كيف يوظف هذه الطبيعة توظيفا كاملا.

ورأيت أنا والمطر.
في الغيوم وأجراسها في البحار
ها أنا أشرع النجوم ورأسي.
وأنصب نفسي
ملكا للريح.¹²

ومن هذه الطبيعة الحية التي وظفها أدونيس في هذا المقطع نجد (المطر)، (الغيوم) (النجوم) (الرياح) وكلها توظيفات جاءت تخدم العرض المطلوب الذي طمح الشاعر الوصول إليه: فقد شبه الشاعر نفسه بالمطر، واندمج في المطر والغيوم اندماجا كلياً، ثم أصبح ملكاً للريح.

وهذا التوظيف لهذه الرموز الطبيعية حقق القيمة النفسية والجمالية في عملية التعاطي مع هذه الرموز ليحقق بذلك دلالة جديدة عبر توظيف الطبيعة فهذا

المقطع هو "نص حسي متفاعل يولد نفسه في حالة الديمومة، ويعتبر الضرورة من آن إلى آخر، يجعل الأنا تواقاً للمعرفة، ويشحنها بالحفر والتوثب نحو آفاق مستقبل أفضل" ^{3 1} إن الرمز يعد كاملاً مهما وموضوعاً كاشفاً لذات الشاعر للتخفي.

وارتداء قناع خاص ليعبر بكل ما يختلج في قرارة نفسه، ويطهر هذه المكاشفات من خلال هذا الرمز سواء تأثر هذا الرمز طبيعياً أم بالطبيعة أو شعبياً أو تراثياً "فتكدس الرمز في حيز كتابي تصوير على نحو متداخل لا يتيح دلالة نفسية للقارئ، يمكنه من خلالها التواصل معه، يولد صعوبة في الفهم وتعتيماً في الدلالة، وإذا توصل القارئ إلى فك الرموز فإنه يستغرق معظم قراءته في جهد ذهني، بدل التذوق الجمالي ^{4 1}، وهكذا نجح الشاعر الحدائي في توظيف هذه الرموز، سواء كانت جزئية أو كلية.

يقول أدونيس في مقطوعة أخرى تتسم بالرمزية والغموض

فينق ليس من يرى سوادنا
يحس كيف نمحي
فينق، أنت ما يرى سوادنا
يحس كيف نمحي
فينق مت أنت فدى لنا
فينق ولتبدأ بي الحرائق
لتبدأ الشقائق
لتبدأ الحياة
يا أنت يا رماد الصلاة. ^{5 1}

فهذا التوظيف الرمزي بوصفه منجماً خصباً للطاقت الإيحائية للشاعر، فالشاعر يتوسل لهذا الطائر (طائر فينق) والذي يمثل بالنسبة له بؤرة للتفجير والانبثاق لتفعيل هذا التسول فثنائية الحرائق والحياة تدل دلالة واضحة على أن الشاعر استخدم هذه الثنائية للفدية لتخصيب النص الشعري من جهة ثم لظاهرة الانكسار الناتج عن إحساس الشاعر، فهذا التشطي الذي يعاني منه وهذا ما جعله يوظف رمز الطائر فينق ليحقق بهذا التوظيف تنامياً داخل النسيج النصي لهذا الطائر. الذي يدل على الحياة والرخاء والازدهار ولكنه جعله كقناع

لإظهار العوالم الخفية لذات الشاعر، وليعبر عن البعد النفسي لذاته والمتجسدة لمرارة هذا العالم الذي يعيش فيه الشاعر.

ولهذا استخدم الشاعر المفردات التي تدل الحزن والكآبة والقلق ومنها (سودنا) (الحرائق)، ولكن رغم هذا السواد فهو يطلب من هذا الطائر أن يموت في سبيل البشرية من أجل إنقاذها من هذا الدمار الذي يحيط بها كي تبدأ الحياة من جديد وهذا ما يدل عليه هذا البيت.

(فينق مت أنت فدى لنا).

وفي مقطع آخر ينادي الشاعر لهذا الطائر ويرجو منه الموت حتى يمكن للحياة أن تنبعث من جديد.

فينق يا فينق

يا طائر الحنين والحريق

فينق مت فينق مت

فينق مت فدى لنا

فينق تلك لحظة انبعاثك الجديد

(تموز) مثل حمل مع الربيع ظافر

مع الزهور والحقول والجداول

تموز يستدير نحو خصمه

أنساؤه نابعة شقائقنا

ووجهه غمام

حدائق من المطر

ودمه هادمه

سوافيا صغيرة تجمعت وكبرت

وأصبحت دهرا.¹⁶

فالشاعر هنا يؤسس ندائه لهذا الطائر الرمز لعبير ما خلال مناداة هذا الطائر نحن عشية الحياة وعن هذا الهاجس القلبي والوجودي المغيب لحرية الإنسان المعاصر إنها صرخة مدافعة عن تطلعات الإنسان.

(يا طائر الحنين والحريق).
(فينق مت فينق مت).

فهذا التكرار لكلمة مت والتي كرر الشاعر عدة مرات في هذه القصيدة إنما هو تعبير اهتم بها الشعراء المحدثين باعتبارها مكونا هاما من مكونات دراسة المفردة الشعرية مما تضيفه من إثراء للقصيدة الشعرية. وجمالية فنية في نفس الوقت وتأتي أهمية هذا التكرار في الدور الذي يلعبه بحيث "يخدم وظيفة مهمة للسياق الشعري وهي جذب انتباه القارئ إلى كلمة أو لفظة يود الشاعر أن يؤكد عليها أو بنية القارئ إليها. كما أن الشاعر بتكرار اللفظة يقوم أحيانا باستخدامها بصورة تختلف قليلا أو كثيرا عن استخدامه الأول".¹⁷

وهكذا فالتكرار الذي استخدمه أدونيس في القصيدة السابقة جاء ليفرض القارئ غي معاودة القراءة لإظهار وظائف هذه القصيدة والإفصاح عن القلق الذي يعيش فيه الشاعر.

وجاء تلوين هذه القصيدة بسمات من الطبيعة الحية والمنبئة (الوبيع) (الزهور) (الحقول) (الجداول) (السواقي) (تموز) وقد جسد الشاعر فاعلية هذه الطبيعة على مستوى تشكيل الصورة الشعرية ثم ليضع دلالات جديدة في العملية الرمزية التي لجأ إليها، ومن خلالها لبيان أبعاده النفسية والشعورية بحيث أسقط الشاعر في نصه كل هذه المظاهر الطبيعية وما ترمز إليه ظاهرتي الحياة والموت فالحياة بلا موت، والموت بلا حياة من نوع آخر، وستظل جدلية الحياة في الموت، والموت في الحياة)¹⁸

ثنائية الموت والحياة قائمة في هذه القصيدة فموت طائر فينق هو بمثابة حياة فهذا الوضع المأساوي التي تعبر عنه هذه القصيدة هو باعث أساسي للحياة من خلال موت فينق، والقارئ الآن أصبح يلعب دورا رئيسيا في الكشف عن مكونات الشعر الحديث، وما يرمي إليه الشاعر من خلال شعره، وأصبح التأويل في مفهوم النقد العربي الجديد ملكا للقارئ فـ الذي يسهم في توصية التأويل هو المتلقي، فقد احتل في الدراسات النقدية دورا مهما في الاستيقال، لأنه يتدخل بأدواته، ومهارته في التلقي فيشارك على حد بعيد في توجيه النص".¹⁹

وهكذا لجأ الشاعر الحدائي إلى توظيف هذه الظاهرة الرمزية كقناع للتعبير عن حالاته النفسية الشعورية وعن قلقه الوجودي لي طرح من خلالها أسئلة وجودية لعله يجد لها جواباً في زمنه العبي.

الإحالات

- 1 - عبد القادر قديم، الاتجاه النفسي في نقد شعر عربي، اتحاد لكتاب العرب، ط1، 1992، ص 399.
- 2 - مصطفى سعدي، لبنات الأسلوبية في شعر عربي الحديث، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، ط1، ص 71.
- 3 - بول ريكور، الوجود الثقافي العربي، ط1، 1999، ص 34.
- 4 - عبد الحليم هيمة، الصورة الفنية في شعر الجزيرة مطبعة دار هومة، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، 2003، ص 204.
- 5 - محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، ط1، 1980، ص 37.
- 6 - أنس داود، الأسطورة في شعر عربي الحديث، ط1، 1975، ص 13.
- 7 - أدونيس، زمن الشعر، ص 15.
- 8 - رفيق حسنة، دراسات في شعر لسوري الحديث، ديوان للطبعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1982، ص 30.
- 9 - حكيمة سعيد، حركة الإبداع دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العودة، بيروت، 1979، ص 121.
- 10 - حكيمة سعيد، للرجع لسابق، ص 30.
- 11 - خالد سليمان، ظاهرة لغزوض في شعر، مجلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ع1، 1986، ص 71.
- 12 - أدونيس، ديوان أغاني مهيار للمعشقي، منشورات مواقف، مطبعة حايك وكمال، بيروت، لبنان، ط3، 1970، ص 53.
- 13 - أحمد ياسين سليم، تحليلات نفسية لعلاقة الأنا بالآخر في شعر عربي للعصر، طار زمان للطباعة ونشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 2009، ص 44.
- 14 - إبراهيم رماني، لغزوض في شعر عربي الحديث، ص 279.
- 15 - أدونيس، الآثار الكاملة، مج1، بيروت، ط4، 1984، ص 61.
- 16 - أدونيس، الآثار الكاملة، مع، بيروت، ط4، 1988، ص 84.
- 17 - عدنان خالد عبد الله، النقد التطبيقي التحليلي، مقالة لدراسة الأدب وعناصره يف ضوء المناهج النقدية الحديثة، طار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، ط1، 1986، ص 24.
- 18 - خليل موسى، بنية قصيدة عربية للعصر، منشورات اتحاد لكتاب العرب، دمشق، 2003، ص 24.
- 19 - مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، جامعة مؤتة الأردن، ع2، 2000، ص 390.